الباب الأول

إعجاز القرآن

(ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين)

[النحل: ٨٩]

obeikandl.com

الفصل الأول

إعجاز القرآن

القرآن كلي الشريعة. وكل فهم له أو إحساس به درجة علم بالدين وإيمان به وتبصرة للعقل الإنساني، بلسان عربي مبين، في نظم عجيب وأسلوب مخالف لأساليب العرب، خارق لعاداتهم ومألوفهم، من فصاحة وبلاغة في تهذيبه وإرشاده وتشريعه، مما أعجز العامة والخاصة على مدار الزمان، وتقاصرت مدارك العقول في كل ضرب عن كمال الإحاطة بمعانيه ومحاسن عباراته، لذلك لم يحاول تفسيره كله أو يتم تفسيره في أي عصر إلا قلة يفتح الله عليها. هذا كتاب الله – جل ثناؤه – فيه تبيان كل شئ. وهو مع وجازته المثلى جامع لمعانيه ولا يكون جامعا إلا والمجموع فيه أمور كلية، هيهات أن ينفذ إلى أعماقها أو دلالات عباراتها جميعا إنسان واحد، أو أهل عصر مهما تقدم أو تأخر. أعجز الخطباء والشعراء والمترسلين، وما هو بخطبة ولا شعر ولا ترسل. ولذلك قال البعض: "إن الكلام في اللسان العربي نثر وشعر وقرآن".

يقول الزمخشري[1] (٥٣٨) صاحب أساس البلاغة وتفسير (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) عن تفسير القرآن بعد إذ بلغ الزمخشري أعلى المراتب في المذهب الحنفي في الفقه وفي العلم باللسان العربي وعلم الكلام يقول عن التفسير: "فالفقيه وإن برز على الأقران.. والمتكلم.. وحافظ القصص (التاريخ).. والأخبار.. والنحوي.. واللغوي.. لا يتصدى لسلوك تلك الطريق.. إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما علم المعاني وعلم البيان بعد أن يكون آخذا من سائر العلوم بحظ".

والمعاني القرآنية بمقاصدها المتنوعة تتغيا حفز الإنسان والأخذ بيده ليتسامى إلى مستوى الجدارة بخلافة خالقه سبحانه في الأرض، وتتخذ لذلك أساليب متعددة، وموجهة لكل الأزمنة.

---

(١) الزمخشري من المعتزلة وهم من أعظم فرق (المتكلمين) أثرا في الفكر الإسلامي وسيرد القول فيما بعد في المتكلمين والمعتزلة.

وتفسير الزمخشري للقرآن من أعلى التفاسير درجة مع ما فيه من آراء للمعتزلة يمكن تمييزها.

تتكشف منها روائع من ضروب الهداية والإرشاد وحقائق تتجلى لعقول الأجيال، إذ يترقى الجنس الإنساني في معلوماته وأدواته فيدركها. ومن أمثال ذلك في أسرار الكون قوله تعالى (خلق الإنسان من علق) لم يظهر للناس دقته إلا باكتشاف المجهر، ونظائر هذا تتواتر في ظواهر أو قوانين الطبيعة الإنسانية والطبيعة الكونية. والعالم يظهر منها على الجديد كلما تقدم.

ومن أجل ذلك وضع القرآن للبشر مصابيح تضئ الطريق، وتهدي إلى عيون الحقائق أو المعاني بمقدار ما يرى أو يدرك كل امرئ في زمانه أو مكانه، إن علماء وإن أفرادا من العامة وإن متخصصين في علوم القرآن أو في علوم مختلفة. ولذلك فرض الله على الناس أن يتعلموا، وأن يستعملوا عقولهم ليتلقوا من التوفيق ما قدره لهم، وليقرأوا كتاب الكون البديع الذي برأه، وكتاب الله الذي أنزله على رسوله ﷺ.

ولقد بذل العلماء منذ القرون الأولى غاية الجهد في بيان وجوه إعجاز القرآن وخصائص أسلوبه، وتتابعت المؤلفات في مجاز القرآن ومعانيه، حتى ليحصي ابن النديم (٣٧٧) في منتصف القرن الرابع للهجرة، نحوا من أربعين تفسيرا للقرآن ومشكله ومجازه، وأربعة عشر كتابا في (غريب القرآن)، وستة في (لغات القرآن)، وواحدا وعشرين في (القراءات)، وخمسة في (النقط والشكل)، وأحد عشر في (الوقف والابتداء)، وخمسة في (وقف التمام)، وكتابين فيما اتفقت ألفاظه ومعانيه، وثمانية في (متشابه القرآن)، وثلاثة في هجاء المصاحف، وثلاثة في (مقطوع القرآن وموصوله)، وستة في (أجزاء القرآن)، واثنى عشر في (فضائل القرآن)، وستة في (عدد آي القرآن)، وثلاثة (لأهل مكة) وأربعة (لأهل الكوفة)، وثلاثة (لأهل البصرة) وثلاثة (لأهل الشام) وأحصى ثمانية عشر كتابا في (ناسخ القرآن ومنسوخه)، وكتابين في (نزول القرآن)، وأحد عشر في (أحكام القرآن)، وواحدا وعشرين مؤلفا في معان شتى من القرآن. وما تتابع من المؤلفات في نيف وألف عام بعد ذلك يجل عن الإحصاء، والمطبوع منه قليل.

والتفسير مستمر ما تعاقب الجديدان.

يرى إبراهيم بن سيار النظام (٢٢١هـ/ ٨٣٥م) شيخ الجاحظ – وإليهما تنسب في فرقتان من فرق المعتزلة – أن بلغاء العرب صرفوا عن الإتيان بمثل القرآن. ولكن تحدى القرآن للعرب

أن يأتوا ولو بسورة من مثله ما يزال مستمر وما يزالون عاجزين. والبلغاء وعلماء البلاغة يتواترون على دراسة الأسرار في إعجازه، ومنها تأثيره الذي يأسر نفس العربي بمعانيه الراقية رقي السماء، وألفاظه التي تسطع كالنجوم أو كاللآلئ في عقد نظيم، وأسلوبه الذي يتزايد أصحاب الأساليب في إحصاء أسراره، وآثاره، على العالم أو الأمي أو الإمام في اللسان العربي.

وأبو هلال العسكري، يشترط دراسة البلاغة على من يريد أن يدرك حظا من (محاسنه التي عجز الخلق عنها وتحيرت عقولهم فيها).

والسكاكي (٦٢٦) يرى (أن إعجاز القرآن يدرك ولا يمكن وصفه، كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها، وكما يدرك طيب النغم العارض للصوت، ولا يمكن توصيله لغير ذوي الفطرة إلا بإتقان علمي المعاني والبيان والحذق فيهما) والرماني (٣٤٨) يرى الإعجاز (في البلاغة التي توصل المعاني إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ).

والزمخشري (٣٥٨) يرى الإعجاز في النظم البديعة والمعاني الراقية.

والخطابي (٣٨٨) يحصل ما تأثر به هو وسابقوه في قوله: (لا نرى شيئا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ولا نرى نظما أحسن تأليفا... وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها، والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها. وقد توجد هذه الفضائل متفرقة في أنواع الكلام فأما أن توجد مجموعة فلم توجد إلا في كلام العليم القدير الذي أحاط بكل شئ علما وأحصى كل شئ عددا).

وتتابع العلماء على هذا المنوال طوال القرون – ومنهم في القرن السابع ابن أبي الأصبع المصري (٦٥٤) الذي جمع الألوان البديعية المعروفة قبله في اللغة العربية، وأضاف إليها دراسات لبديع القرآن واستشهادات من الشعر مع بيان وجوه الحسن في السور والآيات وائتلافيها وموسيقاها وبيان ما في الألفاظ مفردة ومركبة إلى غير ذلك من وجوه الجمال والكمال.

هؤلاء مجمعون أن إعجاز القرآن مرده إلى المعاني التي تسكبها أساليب القرآن في نفوس سامعيه. والعرب ذوو لسن وبلاغة كانت لغتهم أيام نزول القرآن كما يشهد المستشرقون – على ما سنرى بعد – أعظم اللغات وأعلاها. وما تزال لها صدارتها بين اللغات التي تكلم بها أهل أوروبة بعد ذلك بنحو قرون ثمانية وهي اللغات المتداولة الآن. وكان طبيعيا أن يقع الإعجاز فيما اختص به العرب.

– إليك أمثلة ثلاثة من بين (٦٢٣٦ آية) هي مجموع آي الكتاب العزيز:

- **المثل الأول:**

آية من سورة النحل (٩٠) (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون) لا تقتصر فضائلها على المعاني الشاملة التي جعلتها أجمع آية للأحكام. فسنرى من عظمة البيان ما يوائم عظمة محتواها من الأحكام، ونرى من جلال أثرها ما يساوي الصدمة الكبرى لأفهام أساطين البلاغة المكابرين – فيتضافر جلال الموضوع وأثره وجمال الأسلوب وبدائعه في بلوغ الغاية.

١- هي من ناحية المعاني أجمع آية للأحكام كما يقول الإمام عز الدين بن عبد السلام (٦٦٠) [٢] وفيها الوجازة والوضوح والشمول. والأحكام جماع المعاني العظيمة في الشريعة.

٢- ومن ناحية تأثيرها في النفوس يروي القاضي (عياض) [٣] أن الوليد بن المغيرة من سادات قريش وبلغائها – وكان يكيد للنبي عليه الصلاة والسلام – لم يكد يسمعها حتى قال (والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أسفله لمغدق وإن أعلاه لمثمر. ما يقول هذا بشر).

ولما رق قلبه لما سمع جاءه زعيم آخر من كفار قريش ينكر عليه رقته فقال للزعيم (والله ما أعرف منكم أحدا أعلم بهذه الأشياء مني. والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا).

وفي خبر آخر حين جمع قريشا عند حضور الموسم وقال: (إن وفود العرب ترد فأجمعوا رأيا ألا يكذب بعضنا بعضا. قالوا: نقول كاهن. فقال: والله ما هو بكاهن. ما هو بزمزمته ولا سجعه. قالوا: مجنون قال: ما هو بمجنون ولا بخنقه ولا وسوسته. قالوا: فنقول: شاعر قال: ما هو بشاعر قالوا: فنقول ساحر. قال ما هو بساحر ولا نفثه وعقده. قالوا: فما نقول قال: ما أنتم بقائلين شيئا من هذا إلا وأنا أعرف أنه

---

(٢) إمام الفقهاء في القرن السابع صاحب كتاب (قواعد الأحكام في مصالح الأنام) في أصول الفقه وهو الملقب بسلطان العلماء. كان شافعي المذهب.

(٣) القاضي عياض (٥٤١) صاحب كتاب (الشفا في حقوق المصطفى ﷺ) وكتب (المعلم في شرح صحيح مسلم) (ومشارق الأنوار في تفسير غريب الموطأ والبخاري ومسلم) (وترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك).

obeikandl.com

باطل. وإن أقرب القول إنه ساحر، فإنه سحر يفرق بين المرء وابنه والمرء وأخيه والمرء وزوجه والمرء وعشيرته... فتفرقوا وجلسوا على السبل يحذرون الناس).

٣- وأما عن الأسلوب فإنك واجد في كتاب تحرير التحبير لابن أبي الأصبع المصري (٦٥٤) ما يلي:

"أنه عز وجل أمر في أول الآية بكل معروف ونهى بعد ذلك عن كل منكر. ووعظ في آخرها أبلغ موعظة وذكر ألطف تذكير بألفاظ اتفق فيها ضروب من المحاسن مع كونها ألفاظ الحقيقة. وهي صحة الأقسام لأنها استوعبت جميع أقسام المعروف والمنكر والطباقين اللفظي والمعنوي. وحسن النسق والتسهيم (أن يدل الكلام على ما يتلوه) وحسن البيان والإيجاز، وائتلاف لفظ الكلام مع معناه، والمساواة وصحة المقابلة (ترتيب الكلام على ما ينبغي) وتمكين الفاصلة (استقرار مقطع الآية في مكانه).

فأما استيعاب الأقسام فلأنه سبحانه وتعالى أمر بالعدل ثم أمر بعد العدل بالإحسان. وهو اسم عام يدخل تحته التفضل بعد العدل. وقدم العدل لأن العدل واجب، وتلاه الإحسان لأن الإحسان مندوب، ليقع وضع الكلام على أحسن ترتيب. وخص القربى بالذكر بعد دخولها في عموم من أمره بمعاملته بالعدل والإحسان، لبيان فضل ذي القربى وفضل الثواب عليه – ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغي بصيغة تعريف الجنس ليستغرق كل ما يجب أن يؤمر به.

والمطابقة اللفظية في قوله تعالى يأمر وينهي، والمعنوية في قوله سبحانه (بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى) وقوله (الفحشاء والمنكر والبغي) فإن الثلاثة الأخر أضداد الثلاثة الأول، لأن الأول من الفعل الحسن والأخر من الفعل القبيح.

فطابق الحسن والقبيح مطابقة معنوية.

وحسن التنسيق في ترتيب عطف بعض الجمل على بعض كما ينبغي، حيث قدم العدل وعطف عليه الإحسان الذي هو جنس عام، وخص منه نوعا خاصا وهو إيتاء ذي القربى وعطف عليه ثم أتى بالأمر مقدما وعطف عليه النهي ثانيا. ثم رتب جمل المنهيات كما رتب جمل المأمورات في العطف بحيث لم يتأخر في الكلام ما يجب تقديمه ولم يتقدم فيه ما يجب تأخيره.

وأما التسهيم فهو أن صدر الآية يدل على عجزها، كما يدل صدر البيت (من الشعر) على عجزه. وأما حسن البيان فلأن لفظ الآية لا يتوقف في فهم معناه أحد إذ سلم من التقصير في نظمه فقد دل على معناه دلالة واضحة بأقرب الطرق واستوى في فهمه الذكي والبليد والقريب من الصناعة والبعيد.

وأما الإيجاز فهو دلالة الألفاظ القليلة الحقيقية على المعاني الكثيرة من غير إشارة ولا إرداف ولا حذف.

وأما ائتلاف لفظ الكلام مع معناه، فلأن كل لفظة لا يصلح مكانها غيرها. وأما المساواة فلأن ألفاظ الكلام قوالب لمعانيه، لا تزيد عليها ولا تقصر عنها. وأما صحة المقابلة فلأن النهي قابل الأمر. والمنهيات قابلت المأمورات مع مراعاة الترتيب. وأما تمكن الفاصلة فلأن مقطع الآية مستقر في مكانه ومعناه متعلق بما قبله إلى أول الكلام لأنه لا تحسن الموعظة إلا بعد الأمر والنهي..... الخ).

obeikandl.com

- **المثل الثاني:**

آية أخرى ذكر عنها ابن أبي الأصبع المصري أنه وجد فيها – وهي مؤلفة من سبع عشرة لفظة – واحدا وعشرين ضربا من ضروب البديع غير ما يتعدد منها! ذلك حيث يقول سبحانه (وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين) هود ٤٤.أما الإيجاز الفني فهو ظاهر في عددها سبع عشرة كلمة.

١- وأما الإعجاز البيان يفقد فصله ابن أبي الأصبع[٤].

---

(٤) في قوله (استخرجت منها واحدا وعشرين ضربا من المحاسن وهي:

١- المناسبة التامة بين أقلعي وابلعي.

٢- والمطابقة بذكر الأرض والسماء.

٣- والمجاز في قوله (يا سماء) فإن المراد – والله أعلم – يا مطر السماء.

٤- والاستعارة في قوله أقلعي.

٥- والإشارة في قوله (وغيض الماء) فإنه عبر بهاتين اللفظتين عن معان كثيرة.

٦- والتمثيل في قوله تعالى (وقضي الأمر) فإنه عبر عن هلاك الهالكين ونجاة الناجين بلفظ فيه بعد عن لفظ المعنى الموضوع له.

٧- والإرداف في قوله تعالى (واستوت على الجودي) فإنه عبر عن استقرارها بهذا المكان.

٨- والتعليل لأن (غيض الماء) علة الاستواء.

٩- وصحة التقسيم إذ استوعب سبحانه أقسام أحوال الماء وحالة نقصه.

١٠- والاحتراس لأن (غيض الماء) علة الاستواء.

١١- والإيضاح في قوله (للقوم)... (لأن) الألف واللام فيها للعهد لسببين لأنهم القوم الذين سبق ذكرهم ووصفهم بالظلم كما وصفهم في أول الكلام بالظلم.

١٢- والمساواة لأن لفظ الآية لا يزيد عن معناها.

١٣- وحسن النسق لأنه سبحانه وتعالى عطف القضايا بعضها على بعض بحسن ترتيب حسبما وقعت.

١٤- وائتلاف اللفظ مع المعنى لأن كل لفظة لا يصلح في موضعها غيرها.

obeikandl.com

٢- وأما عن الإعجاز العملي في الآية:

فقد ذكر القاضي عياض في كتابه المشار إليه أن ابن المقفع (١٤٢) كاتب العربية الأشهر طلب معارضة القرآن ورامه، فمر بصبي يقرأ هذه الآية فرجع فمحى ما عمل وقال: "أشهد أن هذا الكلام لا يعارض. وما هو من كلام البشر!".

وابن المقفع متهم بالمجوسية أو بالزيغ على الأقل.

- **<u>المثل الثالث:</u>**

حيث يرى ابن أبي الأصبع ويبين أربعة وعشرين نوعا من أنواع البديع في آية من عشرة ألفاظ (ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة) ولا نستطرد إلى تفصيلها وحسبنا بها مذكرا تعريف الجاحظ للقول الفصيح أنه (الكلام الذي قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه وجل عن الصنعة ونزع عن التكلف).

وقديما قل: البلاغة الإيجاز.

١٥- والإيجاز لأنه سبحانه اقتص القصة بلفظها مستوية بحيث لم يخل فيها شئ.

١٦- والتسهيم لأن أول الآية إلى قوله (أقلعي) يقتضي آخرها.

١٧- والتهذيب لأن مفردات الألفاظ موصوفة بصفات الحسن. كل لفظة سهلة.

١٨- وحسن البيان من جهة أن السامع لا يتوقف في معنى الكلام.

١٩- والتمكين لأن الفاصلة مستقرة.

٢٠- والانسجام وهو تحدر الكلام في سهولة كما ينجسم الماء وينساب انسياب العليل من الهواء.

٢١- الاستعارة وقعت في موضعين وهما: الابتلاع للأرض والإقلاع للسماء.

٢٢- والمجاز في مكانين في قوله سبحانه (يا سماء) وفي الإشارة والتمثيل والإرداف، لأن المجاز مجازان مجاز بالحذف ومجاز بالتغيير وقد وقعا معا.

فانظر رحمك الله في هذا الكلام لتنظر ما انطوى عليه نظمه وما تضمنه لفظه).

obeikandl.com

- **حسن الدلالة وتمامها:**

ومن الواضح أن هذا الإعجاز الجامع بين عناصر السمو اللغوي وبين وسائل الإقناع مرده إلى أن الكلام رباني. وأنه وعاء لمعان تنزل إلى أهل الأرض من خالقها سبحانه، وأنه تعالى أراد أن يكون لمعجزته بالقرآن "قوة الدليل" بما لا تقوم معه حجة لمكابر أو معاند أو جاحد أو جاهل. فجاء القرآن جامعا للدلائل العظيمة عظم مصدرها، الموجهة لأحاسيس الناس ومداركهم في كل المستويات، وغير القاصرة على جيل يشهد بعضه المعجزة ولا يشهدها بعضه، بل لا يشهدها من جاء بعده، ما سلف لرسالات أخرى. وحسبنا في هذا المقام بعض وقائع ترويها كتب الماضين، والذي يقع من بابها كل يوم لا يحصى.

١- روى القاضي عياض: أن عتبة بن ربيعة كلم النبي ﷺ فيما جاء به من خلاف قومه فتلا عليه الآيات من ١ إلى ١١ من سورة فصلت (حم تنزيل من الرحمن الرحيم...) حتى قوله تعالى: (ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين) فأمسك عتبة بيده على فم النبي عليه الصلاة والسلام وناشده الرحم أن يكف. وفي رواية... وقام عتبة لا يدري بم يراجعه ورجع إلى أهله حتى أتوه فاعتذر لهم وقال: والله لقد كلمني بكلام ما سمعت أذناي بمثله قط فما دريت ما أقول له.

٢- وذكر أبو عبيد أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) الحجر ٩٤ – فسجد. وقال سجدت لفصاحته.

٣- وسمع آخر رجلا يقرأ (فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا) يوسف ٨٠ فقال أشهد أن مخلوقا لا يقدر على مثل هذا الكلام.

٤- وحكى الأصمعي أديب العربية في عصر الرشيد وبنيه في القرنين الثاني والثالث أنه سمع جارية فقال لها: ما أفصحك. فردت: أو يعد هذا فصاحة بعد قوله تعالى (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين) فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وبشارتين.

٥- وحكى يحيى الغزال[٥] فيلسوف الأندلس في النصف الأول من القرن الثالث للهجرة أنه رام شيئا من معارضة القرآن فنظر في واحدة من ثلاث هن أقصر سور القرآن عدد آياتها ثلاث، وحاول أن ينسج على منوالها فرجع قائلا: اعترتني منه خشية ورقة حملتني على التوبة والإنابة.

٦- وروى القاضي عياض قوله تعالى (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) ثم قال: ويدل على أن هذا لشئ خص به، أنه يعتري من لا يفهم معانيه ولا يعلم تفاسيره، كما روى عن نصراني أنه مر بقارئ فوقف يبكي فقيل له لم بكيت؟ قال للشجاء والنظم. وهذه الروعة قد اعترت جماعة قبل الإسلام وبعده.

من أجل ذلك نقرأ لعبد القاهر الجرجاني (٤٧١) صاحب أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز والرسالة الشافية – عن البلاغة القرآنية حيث يتساءل (فما هذا الذي تجده بالقرآن من عظيم المزية وباهر الفضل والعجيب من اللفظ الذي أعجز الخلق قاطبة؟)

ويجيب (أعجزتهم مزايا ظهرت في نظمه وخصائص صادفوها في سياق لفظه وبدائع راعتهم في مبادئ آية ومقاطعها ومجاري ألفاظه ومواقعها وفي مضرب كل مثل ومساق كل خبر وصورة كل عظمة وتنبيه وإعلام وترهيب وترغيب، مع كل حجة وبرهان وصفة بيان).

ويضيف بيانا لما يتعلق بحجج القرآن وبراهينه فيقول (ومن المعلوم أن لا معنى لهذه العبارات وما يجري مجراها مما يفرد فيه اللفظ بالنعت والصفة وينسب فيه الفضل والمزية إليه دون المعنى، غير وصف الكلام بحسن الدلالة فيه وتمامها فيما كانت له دلالة.. ولا وجه لاستعمال هذه الخصائص غير أن يؤتى المعنى من الجهة التي هي أصبح لتأديته، ويختار له اللفظ الذي هو أخص به وأكشف عنه وأتم له، وأحرى أن يكسبه نبلا ويظهر فيه مزية).

وما الشجاء أو الانتشاء بمساع القرآن إلا الحنين والخشوع من الفطرة التي فطر عليها الناس. فهم إذ يسمعونه أو يقرأونه، يدركون أن الله جل جلاله يتكلم!

---

(٥) انظر ص١٧٤ حيث كان على رأس بعثة من بعثات الخلفاء إلى إمبراطور بيزنطة.

وكلما اتسعت دائرة المعرفة ظهرت كثرة الجهل بما وراءها، فازداد المتعلمون توقانا للهداية وإيمان بمصدرها،وآياته منبثة في كل شئ (وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون).

سأل سائل الإمام جعفر الصادق (لم صار الشعر والخطب يمل منها والقرآن لا يمل؟) فأجاب (لأن القرآن حجة على أهل العصر الثاني كما هو حجة على أهل العصر الأول. فكل طائفة تراه عصرا جديدا، ولأن كل امرئ في نفسه متى أعاده وفكر فيه، تلقى منه في كل مدة علوما غضة. وليس هذا كله في الشعر والخطب) فالقرآن جديد أبدا وهو كلام الله القديم المنزل على رسوله، لا يقتصر تأثيره على عصر أو على مجال عقلي أو حسي أو نفسي ما بقيت السموات والأرض، ومن ذلك تتلاحق الكشوف العلمية فلا تناقض حقيقة قرآنية.

روى الشاطبي (٧١٠) في كتاب الاعتصام عن الأوزاعي (١٥٧) إمام أهل الشام قول أحد الصحابة بعد موت رسول الله بزمن (لو خرج رسول الله ﷺ ما عرف شيئا مما كان عليه هو وأصحابه إلا الصلاة). ومن الأجيال بعد جيل الأوزاعي ما هو أبعد مما كان عليه النبي وأصحابه لكنها جميعا تتشوف إلى هدى القرآن وتنتشي لسماعه وتستخرج من معانيه الجديد المفيد.

- **<u>هندسة البناء القرآني:</u>**

والقرآن قديم دائم، نزلت فيه الآيات بمناسبات ادخرتها لها السماء ليتكامل البنيان القرآني مع كمال الدين للمسلمين. وفي هذا التكامل في بناء القرآن مع تراخي الزمان، معجزات في البنيان، وفي تقدير الزمان، وتقدير حاجات البشر، تفتح أبوابا واسعة لفهم المعاني والبيان والأحكام، يدركها أولو العلم بالقرآن.

وربما أجزأ عن التطويل في هذا الشأن، قول المرحوم الشيخ محمد عبد الله دراز في كتابه (النبأ العظيم) إذ يتحدث عن (هندسة البناء القرآني) في قطعة قطعة وسورة سورة وفيما بين بعض السور وبعض، ثم في القرآن في جملته، ليدل على الوحدة الشاملة فيه:

(أولست تعرف أن القرآن في جملته ما كان ينزل بهذه المعاني المختلفة جملة واحدة بل كان ينزل بها آحادا مفرقة حسب الدواعي والوقائع المتجددة، وأن هذا الانفصال الزماني بينها والاختلاف الذاتي بين دواعيها، كان بطبيعته مستدعيا لانفصال الحديث عنها.. وسبب ثالث كان أجدر أن يزيد السورة تفكيكا ووحدتها تمزيقا – ذلك هو الطريقة التي اتبعت في ضم نجوم القرآن بعضها إلى بعض، وفي تأليف وحدات السور من تلك النجوم... فترى هذا النجم مثلا يؤمر به عند نزوله أن يوضع في ختام سورة كذا... والنجم الذي بعده... وهلم جرا) وينبه على أنه (... قد أعد لكل نجم ساعة نزوله سياج خاص يأوى إليه سابقا أو لاحقا، وحدد له مكان معين في داخل ذلك السياج، متقدما أو متأخرا، إذن لرأيت من خلال هذا التوزيع الفوري المحدد، أن هنالك خطة تفصيلية شاملة قد رسمت فيها مواقع النجوم كلها من قبل نزولها بل من قبل أن تخلق أسبابها بل من قبل أن تخلق الأسباب الممهدة لحدوث أسبابها...) ذلك قاطع في أنه تنزيل من الله الذي أعده للهداية منجمة متدرجة حسب تخطيطه سبحانه (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) النساء ٨٢.

وتتوالى الأمثال في كتاب النبأ العظيم على تناسق أوضاع السور وائتلاف عناصرها وأخذها بحجز بعض حتى لتنظم منها وحدة محكمة في بيانها ومعانيها.

ويختار المؤلف لبيان ذلك سورة البقرة وهي من سور المصحف – بعد الفاتحة – أولاها وطولاها وأكثرها جمعا للمعاني وأكثرها نجوما وأكثرها تراخيا في التنجيم – ففيها الوجوه الكثيرة من ائتلاف الصورة وتقويم النسق وتعديل المزاج بين الألوان والعناصر، فثمة بالتحديد = مقدمة من ٢٠ آية ثم المقصد الأول وهو دعوة الناس كافة للإسلام = ٥ آيات. ثم المقصد الثاني في دعوة أهل الكتاب إلى ترك باطلهم والدخول في الدين الحق = ١٢٣ آية. ثم المقصد الثالث وهو عرض شرائع الدين بالتفصيل = ١٠٦ آية وفيها تنويه بفضيلتي الإنفاق والجهاد. ثم المقصد الرابع وهو الآية ٢٨٤ (ولله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شئ قدير) ثم خاتمة السورة (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون...) والوفاء بوعدها (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا... ربنا... ربنا... واعف عنا...) وهو ختام كله يتفق مع مطلع فيه الوعد الكريم للمؤمنين الذين ناشدتهم السورة في مقاصدها كلها.

ويختتم المؤلف كتابه بقوله (لعمري لئن كان للقرآن في بلاغة تعبيره معجزات، وفي أساليب ترتيبه معجزات، وفي نبوءاته الصادقة معجزات، وفي تشريعاته الخالدة معجزات، وفي كل ما استحدثه من حقائق العلوم النفسية والكونية معجزات، ومعجزات، لعمري إنه في ترتيب آية على هذا الوجه لهو معجزة المعجزات).

- **معاني القرآن:**

حوت لغة السماء بلاغة فوق مقدور البشر لتكون الوعاء الملائم والدائم للمعاني التي تضمنتها. وقال جل ثناؤه (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) النحل ٨٩. وأتبع هذه الآية بأجمع آية للأحكام – وقد سلف فيها القول – فاجتمع في الآيتين شمول القرآن لكل شئ من المعاني والهدى والرحمة والبشرى والأحكام. ووعد الله بحفظ كتابه وأكد وعده (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) فدلت الآيتان الأوليان بتجاورهما وبعبارتهما، على منهج القرآن من شمول ألفاظه لمعانيه كاملة وأرشدنا إلى أن لفهم المعاني والأحكام منهجا واردا في التفصيل الوافي من آياته. ونزلت الآية الثالثة بأن الله سيحفظ الذكر بألفاظه ومعانيه.

وحقيق علينا في عجالة للإلمام بمعاني القرآن أن نفيد مما أورده الشيخ محمد عبد الله دراز[٦] في رسالة الدكتوراه المقدمة للسوربون. حيث اختار معاني القرآن موضوعا للتحدي العلمي لأساتذة يهود ومسيحيين وغير أصحاب دين في المعهد الباريسي العريق في الإذاعة بفلسفة مناقضة لفلسفة المسلمين.

---

(٦) نال الشيخ أعلى تقدير لشهادة الدكتوراه سنة ١٩٤٧ من السوربون بعد أن نال الليسانس في الفلسفة من معهد College de France في الفسلفة وتاريخ الأديان وعلم النفس والأخلاق. وكان مثلا عاليا بين العلماء في عمله بدينه.

ولد سنة ١٨٩٤ وتخرج في الأزهر سنة ١٩١٦ وتعلم الفرنسية فأجادها في سن العشرين ونشر مقالات في صحيفة (Le Temps) بباريس وقتئذ وتقلب في وظائف الأزهر وتولى تدريس الدراسات العالية بقسم التخصص بالأزهر من سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٣٧ وأوفده الشيخ المراغي في أول بعثة للأزهر سنة ١٩٣٧ رجع منها سنة ١٩٤٧ وكان يصغر الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر بعام ويسبقه بعامين في التخرج وهما من أحدث التلاميذ للمرحوم الشيخ علي سرور الزنكلوني عضو جماعة كبار العلماء وتلميذ محمد عبده وخطيب ثورة سنة ١٩١٩ بالأزهر ومن ثمة اندفع الشيخ محمد عبد الله دراز للكتابة في صحافة باريس وفي زيارة السفارات بمصر دفاعا عن استقلال مصر سنة ١٩١٩ وقد عين عضوا بجماعة كبار العلماء سنة ١٩٤٩ وكان يمثل مصر في المؤتمرات الإسلامية العالمية بعلمه وورعه وقوة حضوره. ومات وهو يمثلها في مؤتمر المسلمين في باكستان سنة ١٩٥٨.

وحملت الرسالة اسم "الأخلاق في القرآن"باللغة الفرنسية La Morale Du Coran وإن آثر ترجمتها (بدستور الأخلاق في القرآن) وأصحبها ثانية سماها (مدخل إلى القرآن) (Lnnitiation au Coran) ليعرض بين أيدي علماء اليهود والمسيحيين (ليفي بروفنسال، ماسينون، لوسن – فالون – فولونيه) سيرة النبي عليه الصلاة والسلام فيجعلها (مدخلا) مع معاني القرآن الت يجعلها (اصلا).

جلى المؤلف في "رسالة المدخل" الجانب التطبيقي الذي صير النظريات واقع حياة – فلقد كان عليه الصلاة والسلام (خلقه القرآن) كما وصفته أم المؤمنين عائشة. وبهذا أثبت المؤلف بالواقع الذي يملأ الوجود ولم يجادل في حدوثه مكابر، أن عقيدة الإسلام الدينية حقيقة واقعة، أنشأت جماعة نموذجية ودولة ذات أيد وفضيلة، يتكافأ فيها السلوك الإنساني مع الواجب الديني. ويتوجه العمل البشري مع النبي والصحابة والمسلمين اتجاه الوحي الإلهي. وبهذا أنشأت معاني القرآن العظيمة مجتمع النبوة ليصير مجتمع القدوة لجميع العصور، في حين يفصل أصحاب ديانات أخرى الدنيا أو الدولة عن الدين، فتنفصل المعاني العالية (الأخلاق) عن الناس إذ تفقد قوة الإلزام.

ومن المتعين علينا الوقوف عند قلة مما ورد في أصول (دستور الأخلاق في القرآن) دون كثرتها التي ينتظمها واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهذا حق الله. وكل حق لله حق لكل مسلم على كل مسلم. وكثير منه يمكن المحاكمة عليه والمخاصمة فيه.

يقول (فالدين عقيدة وقانون. أي اعتقاد وطاعة (البقرة ٢٨٥) تعريف البر بمعناه الحقيقي هو الإيمان بالحقائق الاسمية والتحلي بالفضائل الخلقية سواء في السلوك الشخصي أو التعامل مع الغير (البقرة ٢٧٧) وبلغت أهمية الجانب العملي في القرآن أنه يتكرر بصراحة وكشرط لا غنى عنه للفلاح والسعادة).

ويقول عن دعوته التي توخاها بدراسته (إن استخلاص فكرة القرآن من غلافها وإخراجها على هذا النحو من إطارها المحلي لتقريبها إلى الفكر الأوروبي البعيد عن اللغة العربية ما هو إلا تحقيق لجزء من رسالته الحقيقية لأن القرآن يقصد الإنسان حيث يكون وإلى أي جنس ينتمي، حين يوجه نداءه إلى العقل والذوق السليم والشعور الإنساني النبيل).

ويضيف لبيان عالمية الإسلام ووحدة الدين والمنهج المنطقي الإقناعي في القرآن: (ولقد ركز القرآن... وأكد صراحة أن جميع الأنبياء أمة واحدة مجتمعة تحت لواء الله تعالى. وأن هذه الوحدة كانت تجمع سائر الأديان فيما مضى وإنما الأجيال اللاحقة هي التي بذرت بذور الخلاف والفرقة (المؤمنون ٥٢ – البقرة ٢٥٣ – المائدة ١٤–١٥ البقرة ٢٤٦–٢٤٧) ويعرض دعوة الإسلام بطريقته المنطقية لا على أنها دعوة محمدية مستقلة تنافس المسيحية والموسوية وتنازعهما الحقيقية، وإنما يقرر أ المسلم هو من يؤمن في نفس الوقت بموسى وعيسى وجميع رسل الله ويوقرهم من غير تمييز بينهم (البقرة ٢٨٥) وعندئذ يعلو الناس فوق الشقاق والتنافس (آل عمران ٨١).

وينبه على الجانب الخلقي وطابعه (العملي) أو (الواقعي)، في المعاني القرآنية فيجمع في العنصر الأخلاقي بين التصديق والعمل والعقيدة والالتزام القانوني وهذا نقيض ما يقوله فلاسفة الأخلاق من غير المسلمين.

ويشيد بأن الإسلام سلام ينتشر بالحجة لا بالقوة فكان من التوفيق والحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ – ١٩٤٥) تلتهم عشرات الملايين أيامئذ – أن يعلن:

أننشر الإسلام ليس بالحرب وإنما بالحكمة والموعظة الحسنة، بالإقناع العقلي والرضى النفسي.

وإذا لم يكن من الحرب بد فهي حرب للدفاع ضد المعتدي. يقول تعالى (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) البقرة ١٩٠ ويقول (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة) البقرة ٢٠٨ ولذلك وجدنا النبي عليه الصلاة والسلام لا يبدأ أحدا بقتال. أو القول.

والإقناع العقلي والرضا النفسي هما حرية الرأي أو النفس أو القول.

وفي الجانب الاجتماعي والنظامي تنطبع الجماعة بالطابع الجماعي لا الفردي، أي الإيثار لا الأثرة والتعاون لا التناحر.

والأخلاق القرآنية ليست أخلاقا اجتماعية فحسب، بل هي أخلاق فرد ومجتمع ودولة. ومن الشواهد على ذلك، أخلاق الجميع في عصر السلام، وأثناء الحرب، وفي أموال الزكاة أي الأركان الأساسية في قيام الأمة أو النظريات السياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية ومن أجل ذلك يعلي الإسلام قدر الحرية والمسئولية فيجعل الواجب أمرا مقدسا.

يقول المؤلف: إن رجال علم أصول الدين ورجال فقه المعاملات قد خاضوا من قبل في ميادين متشابهة، لكن دراساتهم لم تعرض لما تصدى له من دراسات مقارنة في العالم الغربي، قام بها خصوم الإسلام وأنه اتخذ من دراساتهم نقطة ابتداء ليثبت أن الإسلام ليس كتاب فلسفة ككتبهم بل هو "المثل الأعلى" المعتمد على أن (العقل والوحي) مصدران للحقيقة الأساسية التي تعتبر المصدر الحقيقي للالتزام الخلقي حيث لا أخلاق من دون عقيدة.

فالإسلام الصحيح يؤدي – وحده – إلى اعتبار أن (الواجب مقدس) وهنا تقدس حرية المسلم في قيامه بالواجب، حيث الإيمان يلزمه طاعة الأمر الإلهي، بإقبال نفقس فليس في الإسلام خضوع العبيد.

والمسئولية شخصية لأن (إرادة المسلم حرة). يقول:

(والإرادة والحرية من الناحية العلمية مترادفان – وليس لقوة في الطبيعة، باطنة أو ظاهرة، سلطة كافية لكي تحرك أو توقف النشاط الجواني لإرادتنا).

ويستطرد المؤلف إلى المقارنات بين الديانات، ولا يستبعد البوذية حيث أتباعها كثيرون. وهو دائم المناقشة لفلاسفة الألمان والإنجليز والفرنسيين وغيرهم محتجا بنصوص القرآن والحديث وأقوال الغزالي والفخر الرازي والزمخشري والخوارزمي والشاطبي وابن تيمية والثعالبي ومالك، وعلماء اللغة كابن جني، وفلاسفة المتصوفة كالحارث المحاسبي والحكيم الترمذي، في كل ما تحتاج إليه البشرية من الناحية النظرية والعلمية للأفراد وللأسرة وللمجتمع وللدولة، في فصول تشمل الأخلاق الفردية والعائلية والاجتماعية والعلاقة بالدولة مع بقاء العلاقة بالله في ذروة نقائها ليقطع بأن الدين (عقيدة وشريعة).

وذكر الشيخ فيما بعد في رسالة له بعنوان: (كلمات في مبادئ علم الأخلاق):

(إن قانون الأخلاق في الإسلام لم يدع للنشاط الإنساني في ناحيته الفردية والاجتماعية مجالا حيويا أو فكريا أو أدبيا أو روحيا إلا رسم له منهجا للسلوك وفق قاعدة متينة. بل نقول إنه تخطى علاقة الإنسان بنفسه وعلاقته ببني جنسه فشمل علاقته بالكون كله جملته وتفاصيله).

وقال ليثبت سلطان العقل وأسلوب الدعوة الأخلاقية في الإسلام إنها:

(تعتمد دائما على الحكم المعقولة والمقبولة ومخاطبة الإدراك السليم والوجدان النبيل بالأساليب المقنعة. اقرأ قوله تعالى (ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا) وقوله (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين).

وأمثال ذلك كثيرة جدا.

والدعوة الخلقية في الإسلام شاملة لعلاقة الفرد بالكون كله خاضعة لقوانين العقل وللإدراك السليم بالعلل (الحكم) المقنعة وكل أولئك ظاهر:

١- عندما يطالب المؤمنين بواجباتهم الشرعية.

٢- عندما يطالب بأوامر هامة يترك التصرف بها إلى العقل.

٣- عندما يرفض الطاعة الإلهية.

٤- ويجعل القرآن الجزاء دنيويا وأخرويا (لنبوئنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر).

ولئن كان الأسلوب العظيم كالعقد النظيم الذي تسلك فيه الكلمات مسلك الدرر، ويتعين فحصها واحدة واحدة، إن في بهائه وثرائه بمعانيه منادح تتفاوت في مجالاتها الأفهام ولا يتوقف تفاوتها تبعا لما يجد لبني الإنسان من حاجات أو يبلغه الفكر الإنساني في أطواره من مراحل. وسنرى فيما بعد وجودها جديدة من الإعجاز لإرساء المعاني القرآنية في مدارك البشر بوجه عام وأفهام الفقهاء بوجه خاص. وصدق الله العظيم (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم).

obeikandi.com

الفصل الثاني

كليات أساسية في القرآن

هذا القرآن العظيم فهمه حق فهمه وعمل به بضعة آلاف من الصحابة، ففتحوا للعلم وللحضارة، في بضع سنين، امبراطوريتين كانتا تحكمان العالم! مما يعتبر وجه إعجاز عملي عالمي دائم الدلالة للقرآن ورسالة الرسول ﷺ، وإعلانا عن حاجة الأجيال التالية إلى كبار الربانية والمرشدين ليسبحوا في بحار معانيه ويستنبطوا أحكامه ويقدموها للناس. والإرشاد والاستنباط هذان، وجهان من وجوه (حفظ القرآن) ووسيلتان للعمل بأحكامه والاهتداء بهديه.

لقد حفظ الله القرآن في الصدور وفي المصحف كما يتزايد عدد حفاظه بمرور العصور. وحفظت معانيه قلوب المسلمين، ويتزايد العمل بها حيثما عمل بها الأفراد والجماعات وإن لم يدينوا بالإسلام!

ويسر الله الحفظ فكثرت الآيات الهادية إلى ما بعدها أو قبلها بأسباب شتى، من معنى أو لفظ أو حرف أو حس أو تقابل أو تضاد أو مشاكلة أو مقاربة أو مقارنة أو غير ذلك.

وكان آية لله أن تثبت البحوث العلمية المعاصرة في بلدان غير المسلمين، أن الحوافز لحفظ النصوص القرآنية عن ظهر قلب أصح للذهن وأثبت للفهم وأفتح للمدارك، مما يؤكد أثر القرآن في النفس بإرهاف الحس وتحريك العقل وتوسيع مدى طاقاته، وأن تثبت البلبلة التي تعانيها شعوب العالم المعاصرة، من الاضطراب الخلقي الفاجع، أن في تعاليم الإسلام صلاح العالم، فيزداد الإقبال على اعتناق عقيدته أو على الأخذ بمعانيه.

ولما سبق العالم الأوروبي من بضع قرون باعتناق (المنهج العلمي) الذي جاء به القرآن، كان يسلم بوجه إعجاز عالمي آخر مستمر ملموس يشارك المسلمون وغير المسلمين في إثباته.

وهذا المنهج العالمي قائم على كليات أساسية نذكر منها[٧]:

---

(٧) (أ) والقسم من صور الإقناع في القرآن. ولا يكون إلا بجليل من العظائم، كالشمس والقمر. وهو تعالى يقسم بالقلم لأثره في العلم. يقول في سورة القلم (ن والقلم وما يسطرون).

وفي مطلع سورة الرحمن تتوالى آلاؤه جل ثناؤه وتبدأ بتعلم القرآن وخلق الإنسان وتعلم البيان، ثم تتبعها آيات المعجزات ذلك قوله تعالى (الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان الشمس والقمر بحسبان والنجم

أولها: العلم واستعمال العقل

والله تعالى يقول: (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) ويقسم بالقلم وينادي مدارك البشر جميعا من فطرة وإحساسات وعقل لترى وتسمع وتدرك أسرار الكون وحقائق الوجود، وتجتني خيرات الطبيعة دون تضييق على الناس، بل يهديهم إلى سبيل الرشاد ليسلكوها بمنهج مرسوم فيزدادوا علما وقوة ليضيف كل إنسان بسعيه وبمعرفته شمعة يتألف من ضوئها وضوء نظائرها وهج الحضارة العظيم،بل قل: نور الخلافة لله في الأرض.

والشجر يسجدان والسماء رفعها ووضع الميزان ألا تطغوا في الميزان وأقيموا الوزن بالقسم ولا تخسروا الميزان. والأرض وضعها للأنام فيها...) وفي العنكبوت ٤٣ يقول (ومايعقلها إلا العالمون).

وفي الأنبياء ٧ يقول (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) وفي (غافر) ١٣ يقول (وما يتذكر إلا من ينيب).

وإذا كانت الإنابة إلى الله هي خشيته وتقواه فالله يضع العلماء في الطليعة حيث يقول (إنما يخشى الله من عباده العلماء) فاطر ٢٨.

ويخص الفاقهين حيث يقول في الأنعام ٩٨ (قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون).

وفي (محمد) ٢٤ يقول (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها).

(وفي الأنبياء) يؤاخذ الجاهلين بعدم استعمال عقولهم (لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون).

ويندد بالجاهلين في الأعراف ١٩٩ (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين).

(ب) ويعلن القرآن فضل الاجتهاد وإن اختلف المجتهدون ويعلمنا أن ليس على الصغير بأس إذا خالف الكبير، فكل فهم عطاء من الله حيث يقول تعالى في سورة الأنبياء ٧٨ – ٧٩ عن النبي داود والنبي سليمان عليهما السلام: (وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما).

(ج) ويعلن فضل الله على الناس ونعمته عليهم إذ يستنبطون الحكم من كتاب الله وسنة رسوله حيث يقول في سورة النساء ٨٣ (ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا).

وأمر القرآن باجتهاد العقل ليفتح الأبواب واسعة لإدراك الحقائق ونعى التقليد على المقلدين كي لا يستنيم العقل إلى اتباع قول إلا أن يقوم عليه دليل. وطالما قدم القرآن الحجج وطالب بها الناس ليهتدوا دائما بالدليل.

وبالعقل كان تفضيل الإنسان لا مجرد تمييزه من غيره قال سبحانه (ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات و فضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) الإسراء ٧٤٠. وكانت أولى آيات القرآن نزولا أمرا بالقراءة وتعليما بالقلم وتذكيرا بالعلم حيث يقول تعالى في سورة العلق (اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم).

وكل حرف في صفحة الكون العظيم أداة علم ليتلقى الإنسان تعليم الله له، ويدرك وجوده وكماله. وفي كل نشاط عقلي برهان من حقائق الكون وواقع الوجود، يلزم العقل التسليم والإيمان بالخالق أيا كانت درجة الإنسان من الإدراك، كالبدوي في صحرائه والناسك والعالم والمتعلم، تناديهم الفطرة والإحساس والعقل متفرقة أو مجتمعة أن ما هم فيه فضل من الله عليهم، لن يحصوه إذا حاولوا أن يعدوه.

والتفكير الإسلامي يقوم على حقائق عقلية تنتج عن واقع مشهود أن مسلم به والله تعالى يقول: (أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) الحج ٤٦.

ويقول (ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) الإسراء ٣٦.

ولا يقبل التفكير بالظن أو الهوى والله تعالى يقول: (إن الظن لا يغني من الحق شيئا) النجم ٢٨ ويقول (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون) الجاثية ٢٣.

فالمشرع يأمر بالسير في الأرض ونزاهة الفكر لتحصيل العلم،أي بالاستقراء والاستنباط ويبين ضماناته أو وسائله: الحس بالسمع والبصر وما يجري مجراها، والعقل أي القلب أو الفؤاد وما يتصل بذلك من الفطرة والملكة والغريزة. وبذلك تجتمع مواهب السماء للإنسان في تكوين علمه.

وكان عليه الصلاة والسلام يعلم أصحابه ويأمر بتعليم الناس ويعلن (أن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب) ويضع العلماء موضعا لا يساويه موضع حيث يقول (العلماء ورثة الأنبياء) ويحملهم تبعات التبحر في العلم فيقول (من ظن أن العلم له غاية فقد بخسه ووضعه في غير منزلته التي وضعه الله بها حيث يقول (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا).

والله تعالى يقول: (وقل رب زدني علما) وكان من بركات القرآن أن بلغ المسلمون أبعد شأو في العلم في العصر الذي عضوا فيه على دينهم بالنواجذ.

obeikandl.com

ثانيا: الحرية

الحرية والعقل صنوان في الإسلام والحرية لزام للإنسانية وعليها تقوم المسئولية. وحيث تنعدم الحرية بالقهر أو بالعجز تتعين الهجرة إلى حيث يجد الإنسان حقوقه التي قررتها له السماء وفتحت له أرض الله الواسعة. قال تعالى: (قالوا فيم كنتم قالوا كمنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها..).

والحرية في الإسلام واسعة ومتنوعة: حرية نفس وحرية فكر وحرية قول ومنها حرية العقيدة وحرية الاقتناع وحرية الجدال والمطالبة بالدليل. وكل أولئك تعبير عن الإرادة المستقلة للإنسان.

لا يكره الإسلام أحدا على رأي. والقرآن يضع المبدأ في أقوى العبارات بالنهي والأمر بقوله (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) ويقول: (وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) بل يقول سبحانه لرسوله (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين).

ويزداد المبدأ وضوحا حيث يأمر القرآن بإحسان الجدال مع غير المسلمين فيقول تعالى:

(ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا) العنكبوت ٤٦ بل يجعل للمسلمين أن يبروا غير المحاربين ويفرض عليهم أن يعدلوا في شأنهم حيث يقول سبحانه: (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين) الممتحنة ٨. ويقول في المسئولية الشخصية وحرية الإرادة في المائدة (١٠٥) (يا أيها لاذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم).

وفي سورة النجم ٣٨ إلى ٤١ (ألا تزر وازرة وزر أخرى. وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى) ويقول: (وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شئ نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شئ كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين) النحل ٣٥.

ويقول تعالى: (كل نفس بما كسبت رهينة) ويقول في فصلت ٤٦: (من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد).

ويطالب بالدليل كما قد طالما قدمه يقول تعالى: (ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة) الأنفال ٤٢ ويقول: (قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين) ويقول: (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) النمل ٦٤.

وفي إقامة الحجة على الناس يشترط البلاغ يقول سبحانه (فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب) الرعد ٤٠.

ويقول (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) ويقول (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) الإسراء ١٥ ويقول: (وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا. اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) الإسراء ١٤.

هكذا نجد العقل والإحساس وحرية التفكير واستقلال الإرادة واستعمال العقل وإعذاره أو إنذاره ومحاسبته على عمله بمواهب وهبا الله له.

يريد سبحانه أن يكون الانتفاع بها مؤديا إلى الاقتناع بالحقائق لا بمجرد الطاعة والامتثال. فإنما تجئ الطاعة والامتثال نتيجة للإيمان لا سببا له.

* * *

بالعقل والحرية يعرف الإنسان برهان ربه ويقدره قدره، ويقدم له برهان عمله بتعاليمه. فالطريق إلى الله ذو اتجاهين نزولا إلى الأرض وصعودا إلى السماء. وهو تعالى لم يترك الإنسان سدى بل ملأ الأكوان بآياته ليقتنع الإنسان بآلائه وليتقي الله حق تقاته، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها، ويفتح لها أبواب رحمته والأمل في مغرفته ليدلي كل امرئ بدلوه في عمارة الدنيا.

ولولا العقل والحرية ما تم اقتناع ولا وجبت تكاليف ولا طولبت الأنفس بأن تعلم وتعمل.

ثالثها: الإقناع

والبرهان عقلي وعملي في وقت واحد. لتشارك الفطرة الفكر في تقديره وتقديمه. وهذه الحقيقة ثابتة في ركن الإسلام. فالإيمان إقرار بالعقيدة وعمل بها.

والمسلمون ٠ من احترامهم للعقل – لا يعتبرون إيمان غير المقتنعين، أو كما يعبر الإمام محمد عبده (١٩٠٥م) (إن التقليد بغير عقل ولا هداية شأن الكافرين: والمؤمن لا يكون مؤمنا إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به) و (إن الإيمان يعتمد اليقين، ولا يجوز الأخذ فيه بالظن... وإن العقل هو ينبوع اليقين في الإيمان بالله وقدرته) و (إن الإسلام قد قاضاك إلى العقل ومن قاضاك إلى حاكم فقد أذعن لسلطته. بلغ هذا الأصل بالمسلمين أن قال قائلون من أهل السنة: إن الذي يستقصى جهده في الوصول إلى الحق ثم لم يصل إليه ومات طالبا غير واقف عند الظن فهو ناج) وسنقرأ هذا المعنى فيما بعد عن بعض أساطين المعتزلة، ويكرر الإمام قول الأقدمين (إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه،ويحتمل الإيمان من وجه، حمل على الإيمان).

والله تعالى يأمر بالعمل الصالح سرا وعلانية. ومن ذلك قوله تعالى (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) (التوبة ١٠٥). وفي تفسير المنار "إن العلم يكون في النفس مجملا مبهما حتى يعمل به. فإذا عمل به صار مفصلا جليا راسخا تتبين به الدقائق والخفايا... وهو المشار إليه بحديث: "من تعلم فعمل علمه الله ما لم يعلم" وحديث: "من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعمل"... وإن العمل بالعلم من أسباب المزيد فيه.

ومن مراقبة الله في كل عمل يقوم به المؤمنون كان في كل عمل معنى تعبدي من تقوى الله الراجعة إلى العلم الراسخة بالعمل المنجية من الشبهة الهادية بالقدوة. وفي كل معروف صدقة، ومصلحة، وفي كل غفلة عنه منقصة ومفسدة.

وفي كل فريضة وجه عملي، فالعبادات ليست طقوسا وإنما هي عمل وحافز على العمل. ففي الصلاة دعاء وأمل وحساب يقدمه المسلم مرات في اليوم الواحد. وفي الزكاة والصوم تضامن بين الجماعة الإسلامية وطهرة للنفس الإنسانية وحسن استعمال للمال حتى لا تستبد بالنفس شياطينه. وفي الحج الاجتماع في مهبط الوحي لأهل الإسلام ومؤتمر سنوي ليتذاكروا ويتفكروا ويشكروا أنعم الله عليهم ويعتدوا بجماعتهم.

وفي الحدود منافع أجملها حديث الرسول في نص جامع (حد يعمل به خير لأهل الأرض من أن يمطروا أربعين صبحا).

وفي أداء "فريضة" الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كيما يكون المسلمون خير أمة أخرجت للناس، فرض الرسول العمل باليد وإلا فباللسان وإلا فبالقلب. والعمل بالقلب هو استنكار جماعي للمنكر، استنكارا صادرا من ذنوبه وإن لم يغالبه المستنكرون أو يعالنوه.

ولما حصرت الشريعة الواجبات ولم تحصر الأمور المستحبة كانت تفتح الأبواب واسعة للتراحم وإحسان الأداء، وكلما ارتفع المسلم درجة، اتسع نطاق إحسانه ليصير خيرا كله للناس كلهم.

- **من صور الإقناع في القرآن:**

القرآن كتاب هداية وإقناع. وإقناعه أنواع. لكنها تجتمع على أصل واحد هو فهم الواقع الذي يلمس ويحس ليبصر به الناس بعيونهم أو يحسوا به بحواسهم ويقدروه ببصيرتهم أي بعقولهم ومداركهم. وليس فيها "أوامر مفروضة" بل هي مشاهدات ثابتة تستنبط منها نتائج لازمة.

وأول ما يبده العقل من صور الإقناع، تسليم الجميع باستحالة صدور القرآن من مصدر بشري على ما سلف من بيان وتتابع بعد ذلك حجج الله على الناس بما يقرأونه في صفحات الكون العظيم، ويستنبطون منه، فالقرآن يذكر الآيات، ويورد النبوءات، ويستعمل القسم، ويخاطب الفطرة، ويبين السنن التي لا تختلف، ويستعمل التحدي للمكابر، وفي كل أولئك احتجاج بواقع لا يمكنهم أن يتماروا فيه.

- **النبوءات:**

لسنا بمقام حصر النبوءات في القرآن مما تحقق على أعين الناس في حياة الرسول وما يزال يتحقق على مدار العصور ليثبت أنه تعالى صدق وعده. وإنما تجتزئ – كدأب هذا الكتاب – بمثل من نبوءة واحدة تغني عن التطويل. ففيها نبوءات أربع صنعت على أعين البشر في الشرق والغرب، وشهدها المكابرون من النصارى واليهود، وتعددت فيها المعجزات، وتعاظم دليلها واستمرت آثارها في التاريخ لتعلق النبوءة بالإمبراطوريتين اللتين كانتا تحكمان العالم، ويلتحق بسيادة كل منهما بعض قبائل العرب، وبالبشرى بغلبة الإسلام ليبقى أبدا، وقد أنزل الله آياتها بعد إذ وقعت الحرب بين الروم والفرس وانتصر الفرس فسجل القرآن هزيمة الروم، وأكد أن الغلبة

ستكون لهم في بضع سنين. وأضاف إلى نصرهم نصرا لم يكشف عنه للمسلمين حتى ينالوه بجهادهم.

قال سبحانه: (ألم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر الله من يشاء وهو العزيز الرحيم. وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون).

فالله تعالى يستفتح السورة بما يسترعي انتباه العالم، إلى إعجاز القرآن وهو المكون من حروف يعلمونها. وفي الآيات التالية يقرر الواقع ثم يؤكد:

١- أن الروم بعد إذ غلبهم الفرس سيغلبون.

٢- وأن نصرهم سيكون في بضع سنين.

٣- وأن المسلمين يومئذ سيفرحون بنصر الله. وقد تحققت النبوءتان الأوليان إذ انتصر الروم في بضع سنين، وتحققت النبوءة الثالثة إذ وقعت وقعة بدر كبرى وقائع الإسلام فاقترنت بانتصار الروم وفرح المؤمنون يومئذ بانتصار بدر. وأخذت دولة الإسلام وضعها العالمي فوق الفرس والروم لتبقى أبدا. دولة أو دولا. وتعالى الله في الوفاء بوعده وبلاغة قوله ونفاذ حجته إلى صميم الأنفس في قوله (وعد الله لا يخلف الله وعده...) [٨].

٤- وتحققت في وقعة بدر كذلك النبوءة الرابعة التي وردت في سورة القلم قبل الهجرة بسنوات عديدة حيث قال (سنسمه على الخرطوم) القلم ١٦ فيومئذ أصابت الوليد بن المغيرة - عدو الإسلام وقد نزلت فيه الآية - ضربة سيف على أنفه أثارت السخرية منه طيلة حياته.

---

(٨) انهزم الروم في حكم هرقل الأول (٦١٠ - ٦٤١) فانتزع منهم الفرس آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين ومصر وأوشك الإمبراطور أن ينقل العاصمة من القسطنطينية في أوروبا إلى قرطاجنة في أفريقية لولا أن ثناه عن عزمه البطريك ثم نصره الله على الفرس فاسترد خسائره وطارد الفرس حتى نهر دجلة، وقد نزلت سورة الروم في مكة وانتصر الروم في السنة الثانية من هجرة الرسول عليه السلام إلى المدينة وفيها وقعت وقعة بدر كبرى وقائع الإسلام.

obeikandl.com

- **القسم:**

ولئن كان الاحتجاج بالنبوءات أكثر روعة للشكاك والمنافقين، فإن القسم يحدث من الروعة ما تنخلع له الأفئدة. فالعرب لا يحلفون إلا صادقين لاعتقادهم أن اليمين الكاذبة تترك الديار بلاقع، ولهذا يستعمل القرآن القسم لتقرير الأمر الجليل ليلفت أفهام الذاهلين. أو كما يقول الإمام عبده (لتقرير وجوده في عقل من ينكره ولتعظيمه في شأن من يحتقره ولتنبيه الشعور إلى ما فيه من حكم وأسرار).

والقرآن لذلك يستعمل القسم في مواضع التدليل على الوحدانية والبعث والرسالة والإيمان بها ويصاحبه بآياته الباهرة مستدلا بالفطر السليمة على الحقائق التي يلمسها ويحسها من يسوق الدليل لإقناعه.

إنه تعالى بعظائم مخلوقاته ومعجزاته، كالشمس والنجم والضحى والليل، والعصر (بمعنى الدهر) خذ مثلا واحدا قوله تعالى بعد أن ذكر بعديد من آياته: (وفي الأرض آيات للموقنين. وفي أنفسكم أفلا تبصرون. وفي السماء رزقكم وما توعدون. فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون) الذاريات ٢٠ إلى ٢٣.

ولئن كانت الأنفس الإنسانية التي تهزها الآيات كي تعتبر مثل الهباءات بالنسبة للأكوان التي ورد بها القسم، إن نفس الإنسان عالم عظيم ليست مثله العوالم وفيه قول الشاعر:

أتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

- **التحدي:**

والقرآن يتحدى المكابر بالفطرة التي يتجه بها إلى خالقه كهيئة ما يتجه الوليد إلى أمه إذا حزبه الأمر لأنها سبب وجوده وإليها ملاذه ومن ذلك قوله تعالى في سورة يونس ٢٢ وله أشباه تتكرر في آيات أخر: (هو الذي يسيركم في البحر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين).

ويتحدى بعظمة خلقه فيبهت المكابرين إذ يستسلمون مبلسين. يقول (هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين) لقمان ١١ وكما يتحداهم أن

يخلقوا كخلقه من السموات والأرض والشمس والقمر والريح والمطر والجبل والبحر، يتحداهم بالصغير واليسير فينزل بهم إلى أدنى فأدنى، وإلى بعوضة فما فوقها، أو يجمعهم جميعا ليخلقوا ذبابة أو حيث لا يستطيعون أن يستنقذوا ما تسلبهم ذبابة. ثم يقول سبحانه (ضعف الطالب والمطلوب. ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز) الحج ٧٣-٧١.

* * *

ويتحداهم في خصيصتهم من البلاغة متدرجا بهم في عجزهم أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة من مثله! فيعجزون وما يزالون عاجزين!

يقول الفرد جيوم رئيس كلية كلهام بانجلترا في النصف الأول من هذا القرن الميلادي في تقديم كتاب تراث الإسلام (وقد كان من حسن حظ الإسلام أن بلغت رسالته في وقت كان اللسان العربي في ذروة مجده، وكانت اللغة الآرية في فقر مدقع إذا قورنت باللغة العربية، كما لم تكن اللغة العبرية المأثورة في عصرها الذهبي، لتقوى على منافسة هذه اللغة العربية في بلاغتها العجيبة).

وما يرويه مستشرق – ديني – عن بلوغ اللسان العربي ذروة المجد في ذلك العهد، إقرار بأن تحدي القرآن كانت تحديا لذروة المجد. وأن الإقرار بالعجز كان إقرارا من المقتدر في ذروته. وهو إعجاز سلمه من عاشوا في عصر نزول القرآن ويستسلم له المستشرقون وغيرهم ممن يعيشون الآن. واللغة العربية مازالت في مكانتها من لغات العالم.

واللغات التي استحدثت في الأعوام الألف التالية مثل الإنجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية أضيق نطاقا في مادتها وفنون بلاغتها وتراكيبها وأساليبها من اللغة التي اختارها الله وعاء لمعانيه.

إن من السور ما يقتصر على آيات ثلاث، ألفاظ واحدة منها أربعة عشر، نعني سورة العصر. والشافعي رضي الله عنه وهو من (أهل القرآن) ومن أبلغ العرب وأعلاهم كعبا في البيان يقول عنها (لو لم ينزل غيرها من القرآن لكفت) [٩].

---

(٩) فسرها الإمام محمد عبده في فاتحة القرن الميلادي الحالي على مدى سبع ليال بالرواق العباسي بالأزهر (الإمام محمد عبده للمؤلف ص٩٨ طبعة دار المعارف).

وفاتحة القرآن تسمى (أم الكتاب) وهي مؤلفة من سبع آيات كما يحصيها الشافعي إذ يدخل البسملة في إحصاء كل سورة. أو ست فقط كما يحصيها مالك وأبو حنيفة. وهي تسمى كذلك لاشتمالها على المقاصد الأساسية فيه، وعلى الأصول التي يفصلها القرآن تفصيلا. والعرب تسمي كل أمر جامع أما. فتقول عن مكة (أم القرى) وتسمي راية الحرب "أما" لاتباع الجيش لها. وتقول إن الأرض "أم" لأنها تجمع الخلائق. والسيوطي يقول: إن الفاتحة بذلك كالعنوان وبراعة الاستهلال، بل الحسن البصري يقول: (إن الله أودع علوم القرآن في المفصل ثم أودع علوم المفصل في الفاتحة فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير جميع الكتب المنزلة) والإمام محمد عبده يقول (وعلى هذا تكون الفاتحة جديرة بأن تسمى (أم الكتاب) كما تقول إن النواة أم النخلة فإن النواة مشتملة على النخلة حقيقة).

ولقد ألف الخراشي (١١٠١هـ) صاحب الشرح الكبير وفتح الجليل لمختصر خليل في الفقه المالكي شرحا للبسملة وحدها يقع في نحو ٤٠ كراسة.

وكيف يثبت كبراء البلغاء أمام تحدي الكتاب المجيد لهم، ولكل حرف فيه مغزاه ولكل لفظ معناه. ولما يتكرر منه مقصوده.

ولا نستطرد في هذا الباب فنبعد. وإنما نقف في الفاتحة عند أولها (الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم) فللرحمن الرحيم معنى وللرحمن معنى وللرحيم معنى: أما المقصود بالرحمن الرحيم فإيراد صفة الرحمة مع الربوبية التي تعني السيادة والجلال – وقد توهم سامعها الجبروت والقهر. يقول أبو حيان في البحر المحيط: بدأ أولا بالوصف بالربوبية... فناسب ذلك الوصف بالرحمانية والرحيمية ليبسط أمل العبد في العفو إن زل ويقوى رجاؤه إن هفا.

وأما الجمع بين الرحمن والرحيم ففيه– كما يقول ابن القيم – معنى بديع (وهو أن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه. والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم، وكأن الأول هو الوصف والثاني هو الفعل. الأول دال على أن الرحمة صفة. والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته أي صفة فعل له سبحانه. فإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله تعالى (وكان بالمؤمنين رحيما) (إنه بهم رءوف رحيم) ولم يجئ قط رحمن بهم ٠ فعلمت أن رحمن هو الموصوف بالرحمة ورحيم هو الراحم برحمته).

- **السنن:**

ومن حججه تعالى على خلقه، سنته الكونية والاجتماعية التي لا تتخلف في الأكوان والأمم والأفراد.

والله تعالى يقول: (ولن تجد لسنة الله تحويلا) فاطر ٤٣.

فالسنن الكونية تجري على نسق مستقر بتقدير العزيز الحكيم.

والسنن في الأمم جارية على أنها تهلك في الدنيا إذا انحرفت عن الجادة. فتلك حتمية تاريخية من قوانين السماء. يقول تعالى: (فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) النحل ٣٦. وفي سورة فاطر ٤٤ (أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شئ في السموات ولا في الأرض) ومثل ذلك في سورة الروم ٩ وآل عمران ١٣٧ وقوله في سورة يونس ١٠٢: (فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم) وقوله في الأنفال ٥٣: (ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) وقوله في هود ١١٧ (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) وقوله في الإسراء ١٦ (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا).

أما السنن في الأفراد فجارية بالثواب والعقاب على الصلاح والفساد، مع فضل الله بانتظار التوبة وتأجيلهم أجلا لعلهم يصلحون، وله الكلمة العليا في مصايرهم. يقول تعالى في سورة فاطر ٤٥ (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإنه كان بعباده بصيرا) ومثل هذا في سورة النحل ٦١.

والأجل لإصلاح الفرد يصاحبه الأمل في صلاح الأمة وأثرها في إصلاحه فتعمر دنيا الناس بالعمل الصالح – وتبقى الأمة ببقائه وتنهار يوم ينقطع مناه دابره.

- **الأمثال:**

ويضرب الله الأمثال للناس ليتعلموا بالقياس وهو الاجتهاد كما يقول الشافعي.

يقول تعالى (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون) الزمر ٢٧ ويقول (وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) الحشر ٢١ و(مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله

واسع عليم) البقرة ٢٦١ ثم الآيات ٢٦٤- ٢٦٥- ٢٦٦، وما أكثر ما يضرب القرآن من أمثال للناس لعلهم يتفكرون أو يتذكرون، أي يستدلون ويستنبطون ومنها ما يصرح فيه بالمثل ومنها ما يستفاد منه المثل وفيها تكليف للناس أن يعتبروا. يقول في آل عمران ١٣ (قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار).

- **المطالبة بالدليل:**

ومن الحجاج القرآني مطالبة صاحب الدعوى بالدليل (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) أو مجرد التفنيد كأن يقول (حجة داحضة).

- **المطالبة بالبحث وعدم إنكار ما لم يحط بعلمه:**

والقرآن يستنكر إنكار الجاهل لما لم يعلم علم إحاطة (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه) يونس ٣٩.

- **المطالبة بالفهم لا بمجرد الحفظ:**

ويشبه حملة الأسفار الذين لا يفهمون أو يعملون بما فيها بحملة المتاع من الدواب (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم).

* * *

هكذا تجد في كل حجة قرآنية شهادة بالحواس لينزل عليها حكم العقل. ويتخذ الأكوان كلها والأشياء كلها مجالات تعمل فيها الملكات للاستقراء والاستنباط وهم جماع وسائل المعرفة.

وكما يقول ابن حزم (٤٥٦) إمام أهل الظاهر "المعرفة تكون بأول العقل وبالعقل من غير استعمال للحواس. وببرهان راجع من قرب أو من بعد إلى شهادة الحواس".

obeikandi.com

رابعها: طريقة الدعوة إلى الإسلام

المنهج طريق برهاني والدعوة فاتحة له، فيها خصائصه من حكمة ويسر ونصفة وبر، توحي بالثقة. يقول تعالى: (... ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين) ويقول (أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا) ولما استؤذن رسوله عليه الصلاة والسلام في قتل رأس المنافقين أجاب (بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا).

وكان إذا بعث بعثا قال لهم (تآلفوا الناس وتأنوا بهم ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم... أن تأتوا بهم مسلمين أحب إلي من أن تأتوني بأبنائهم ونسائهم وتقتلوا رجالهم).

ولما قال عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز لأبيه: ياأبت مالك لا تنفذ الأمور، فوالله لا أبالي لو أن القدور غلت بي وبك في الحق، قال أمير المؤمنين (لا تعجل يا بني فإن الله ذم الخمر في القرآن مرتين وحرمها في الثالثة وإني أخاف أن أحمل الناس على الحق جملة فيدفعوه جملة ويكون في هذا فتنة).

وما كانت سنة النبي عليه الصلاة والسلام واتباع عمر لها إلا تطبيق دقيق لختام سورة النحل:

(ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين. وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير الصابرين. واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون. إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) فطريق الدعوة:

أولا: الحكمة. ومن الحكمة الحجة واليسر والبر والنصفة وحسن التأدي إلى الغرض ونفع المدعوين بالمعاني النبيلة. ولهذا عطف عليها الموعظة الحسنة. وليس لوجوه البر في الموعظة حدود.

ثانيا: إذا دعا داع لجدال فأشكل بالمسلم وأمثل في الإقناع، أن يكون جداله(بالتي هي أحسن).

والله تعالى يعلمنا أن نبدأ بالحكمة والموعظة "الحسنة" ويكلفنا إذا دعا الداعي لجدال (أن نجادل بالتي هي أحسن).

فالجدال مقارعة بالحجة ورد فعل لها. وهذه مرحلة تحتاج إلى اتباع ما هو أحسن.

ثالثا: العدل والتعامل بالمثل، مع إيثار الصبر إذا جهل الناس أو مكروا. فأولى بالداعية أن يقابل المكر بسعة صدر تنم عن ثقته فيما يدعو إليه وجدارته بالثقة.

رابعا: العفو عن المخطئ والاستغفار له. كما علمنا الرسول أن نتألف الناس ونتأنى بهم. وتعلم عمر بن عبد العزيز من ذلك أن يتدرج حتى لا تقوم الفتنة.

obeikandl.com

خامسها: منهج استقراء الواقع واستعمال العقل للاعتبار

وكما يتبدى أسلوب الدعوة في ختام سورة النحل يتجلى في السورة ذاتها ما نجده في (كثرة السور) من خصائص المنهج الإسلامي في الاستقراء والاستنباط وحسبنا منها بعض آيات تغني عن التفصيل:

فالسورة تبدأ ببث الطمأنينة في قلوب الناس لأن الله بالغ أمره في الوقت الذي جرى به قدره في أكوانه. وأنه يبعث رسالاته إليهم ليتقوه وحده سبحانه (خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون) النحل ٣ وبعد هذا الاستهلال بقدرته ووحدانيته وخلقه الأكوان كلها بالحق وانتظامها عليه دون اختلال، تصطحب السورة الناس في إقناع بياني،وإقناع استقرائي واستنباطي يستولى على الأنفس من أي مستوى عقلي ليتذكروا ويتفكروا ويستنبطوا من عظائم لا يختل لها نظام، ونعم يشهدونها ويسمعونها ويتذوقونها ويستعملونها (خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين. والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون. ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون. وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون. وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين. هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون. وما ذرأ لكم في الأرض مختلفا ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يذكرون. وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله لعلكم تشكرون. وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون. وعلامات وبالنجم هم يهتدون أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون. وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم) النحل ٤ إلى ١٨ ويتكرر المنهج ذاته في الآيات من ٦٦ إلى ٧٠ ومن٧٥ إلى ٨١.

هكذا تبدأ الآيات التي نقلناها والتي أشرنا إليها بسننه سبحانه في خلقه ثم استعراض أو استقراء لكثير من النعم والظواهر العظمى لخلقه واقتداره، مما تحس به كل الحواس الإنسانية. وتكرر أن في ذلك لآيات لقوم يعقلون أو يؤمنون أو يتفكرون أو يتذكرون، لعلهم يشكرون أو يسلمون. والشكر نتاج فهم وطمأنينة نفس. والإسلام هو النتيجة المرتجاة.

وبعد استعراض هذا الكثير العظيم مما لا يحيط بوصفه إلا خالق الكون تختتم الآيات بأن هذا قليل من كثير لا يستقصى.

ويستمر الأسلوب الاستقرائي في لفت الحواس إلى أشكال وأنواع أخرى بأدلة من سنن الله في الخلق طريقها السير في الأرض والنظر إلى ما وقع أو يقع للأمم المخالفة للسنن (الآيات ٢٦- ٣٦- ٦٠- ١١٣) ومنه استنكار تسليم الإنسان عقله إلى غيره وإهدار استقلال إرادته (الآيات: ٢٤- ٢٧- ٨٦) والتذكير بما في فطرة النفس من تسليم بقدرة الخالق إذ يخاف المخلوق الضرر (٥٣) وإذ ينكشف عنه (٥٤).

ثم هذا قسم قرآني عظيم عن سنة الله (٦٣) تقرأ بعده أمثالا من توفيق الله لمخلوقاته في عالم النحل وروائعه (٦٨- ٦٩).ومن العبد والأبكم وخسران الذين لا يعملون العمل الصالح ونفع الله بمن يعملونه (٧٥- ٧٦) وتشبيها لمن ينقض عهده بمن تنقض غزلها بعد قوة (٩٢) وبيانا لمصر القرى الكافرة.

كما تجد أجمع آية للأحكام (٩٠) وقد سلف القول عنها وتجد من الأحكام عفو الله عند الإكراه (١٠٦) والمسئولية الشخصية لكل نفس عما عملت (١١١) والعفو عند الإضطرار (١١٥).

ويتخلل هذه الأحكام الفقهية استعراض آيات السماء والاستقراءات المستفيضة والاستنباطات الناطقة، مما يعتبر مثالا عاما شاملا للأسلوب القرآني ومنهجه في الإثبات الجامع بين أنواع متعددة من مسالك الإقناع.

وتنتهي الآية ٨١ بقوله تعالى بعد تعداد بعض أنعمه (كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون).

openkanar.com

سادسها: النهي عن التقليد وعدم الاستسلام للأوهام

جمع القرآن في هذا الباب وجوه الجانب السلبي من تعطيل العقل ليحوطه بسياج واق من العلل التي تنتج من الجهالة أو الضآلة أو الخوف أو الخرافة لتعطيل الفكر فودرت النصوص في غير موضع للتنديد بوجوه من الضلال أو التقليد (وهو اتباع رأي الآخرين دون معرفة الدليل).

وأسبابها آفات مركوزة في الطباع كاتباع تفكير سقيم، لأن الغير يقول به. ومنها اتباع الظن أو الهوى أو الميل إلى الذات أو إلى آراء السابقين المضللين أو مجاراة أهواء أو أوهام درج عليها الأهل أو المجتمع أو أصحاب السيطرة.

ومن المسيطرين من يستعملون أساليب للإيهام أو التحريف ومنهم جهلاء أو مستغلون. ومن الآفات ما هو خلل نفسي يخضع أصحابه للوهم كأنما يعبدون فيه الصنم، ومنها الصنم ذاته يصنعونه ويعبدونه!

وفي أي من هذه الآفات تعطيل لمنفعة العقل ووقف لتطور العالم في حين يؤدي عدم اتباع الغير إلا بدليل إلى عدم الإبقاء على ما لا يصلح، والعمل لإيجاد الجديد الصالح، وهذه وسيلة التقدم وعمارة العالم.

وفيما يلي بعض آيات من كثير ينهي عن آفات تعطيل الفكر:

١- قوله تعالى في سورة التوبة ٣٠- ١٣: (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله... يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره).

والإمام جعفر الصادق يفسر اتخاذ الأحبار والرهبان أربابا بأن الناس اتبعوهم دون فهم (فتلك عبادتهم) أو كما يرى البيضاوي أطاعوهم في تحريم ما أحل الله وتحليل ماحرم الله أو بالسجود لهم. فالآفة هنا اتباع دون فهم كالسجود للصنم.

٢- وقوله تعالى في سورة لقمان ١٤- ١٥: (ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير. وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا) فهو تعالى يؤدب الأبناء بالأدب القرآني ويذكر بما للأبوين على الأبناء من حقوق

ثم ينهى عن طاعتهما إذا جاهدوهم ليشركوا بالله ليعلمنا ألا نخضع لآراء فاسدة للآباء – أو لمن نخالفه مع اصطحاب المعروف والأدب في الخلاف.

٣- ونهيه سبحانه وتعالى عن اتباع تراث السلف دون دليل يجيزه العقل أو المصلحة المشروعة سورة لقمان ٢٠- ٢١ (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير – وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير) وهذا منع صريح من التقليد في الأصول كما يقول البيضاوي. ومن الآباء في هذا الباب القدماء بوجه عام، والعشيرة والقبيلة والمجتمع والفلسفات السائدة الفاسدة، حيث تقول الآية (ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير) ويتكرر هذا النهي في مواضع كثيرة منها:

قوله تعالى في موضع آخر (أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون) المائدة ١٠٤ وفي موضع آخر (أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون) البقرة ١٧٠.

٤- وفي إيجاب التثبيت وابتغاء الحجة لبلوغ الحقيقة مع التنديد بالأخذ بالظن أو بالفراسة أو بالكذب قوله تعالى في سورة يونس ٣٦: (وما يتبع أكثرهم إلا ظنا إن الظن لا يغني من الحق شيئا) وفي يونس ٦٦: (إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون).

٥- وفي التنديد بإنكار الجاهل ما لم يعلم وعدم بحثه ليتعلم قبل أن ينكر،وحثه على الجد في صدد العلم قوله تعالى في سورة يونس ٣٩: (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين).

٦- وفي الاتهام الجزاف من المقلد أو المبطل للداعية إلى الحق، بشهوة الكبرياء، لاستبقاء ما عليه المكذبون من الباطل الموروث يقول تعالى: (قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض) يونس ٧٨.

٧- وفي عبادة الإنسان لذاته واتباع هواها ما ينفي وجود العقل ويجعل الإنسان كالحيوان بل أضل يقول تعالى: (أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا) الفرقان ٤٣- ٤٤.

وفي سورة النجم ٢٣: (إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس)..

٨- ويقول في الحج ٣٠- ٣١ عن الخضوع للأوثان وقول الزور أي الكذب: (... فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق).

٩- ومن الأصنام أصنام أوهام أو أصنام تماثيل من الشجر أو الحجر وغير ذلك. يقول تعالى عن الأصنام في سورة الأنبياء ٥١ إلى ٥٤: (ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكتابه عالمين. إذ قال لأبيه وقومه ماهذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون. قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين. قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين).

١٠- ويقول في أصنام الرجال: العنكبوت ٤١: (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون. إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شئ وهو العزيز الحكيم. وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون).

١١- ويقول في سورة النساء ٥١ عن كل باطل وضلال تخضع له العقول: (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا) (١٠).

هذه الآي وأمثالها في الكتاب العزيز تأمر بالحرية واستقلال الإرادة وصدق القول ونزاهة الفكر وتنهى عن الهوى والظن أو المجازفة بالفراسة أو قول الزور، وتنبه على الدقة في قبول الدليل ورفضه وعدم تكذيب ما لا يحيط المرء بعلمه أو الاستسلام لما يحيط به من معارف الآباء أو الأهل أو القبيلة أو الجماعة أو السلطة أو الآراء التي لا تؤيدها الدلائل أو للأوهام يتوارثها الأبناء عن الآباء وتبقى في الهواء كالدخان يتنفس أذاه الإنسان فيفسد إدراكه أو يعمي بصيرته.

---

(١٠) عن الراغب الأصفهاني (٥٩٠) في غريب القرآن (الجبت والجبس الفسل الذي لا خير فيه. وقد يقال لكل ما عبد من دون الله جبت. والطاغوت عبارة عن كل متعد وكل معبود من دون الله).

obeikandi.com

مما سلف في هذا الباب يمكننا أن نشير إلى أمور:

أولها: أن المنهج القرآني موجه إلى الإنسان بجمعه – فطرته وبديته وأحاسيسه ومداركه وعقله – ليستقرئ الوقائع ويستنبط الحقيقة كما يخاطب النفس بعناصر الكون الذي هي جزء صغير فيه يؤثر فيها أكثر ما يتأثر بها.

ثانيها: أن الإسلام يجمع بين الدين والحياة والعلم والعمل ويحرص على الحرية الفكرية والشخصية الإنسانية ويفرض استعمال العقل فهو يقول للناس: تأملوا الحقائق وستقودكم الحقائق إلى الإيمان. ولا يقول مقال أحبار الديانات الأخرى: آمنوا وسيقودكم الإيمان إلى الحقائق.

ثالثها: أن المنهج الفكري في الإسلام لا يفرض نظرية يلزم بها أحدا بل يقدمها ويترك الحرية كاملة في الاقتناع.

رابعها: ورود النصوص واضحة صريحة في النهي عن كل ما يعطل الفكر عن العمل من أوهام وأغاليط أو تقاليد ومزاعم لا يؤيدها دليل، لينطلق الإنسان حرا في الآفاق التي حثه الله على ارتيادها ليتعلم ويتقدم ويتطور مهتديا بالأصول التي نزل بها القرآن وأوضحتها السنة.

خامسها: أن القرآن جمع من أساليب التهذيب والإرشاد والتشريع ما يرفع مستوى الإنسان إلى حيث تشاء السماء ويأخذ بيده في كل أطواره بالرحمة والنصفة ليستحضر على الدوام مسئوليته عن نفسه وعن مجتمعه، بالعدل والإحسان في حق نفسه وحق غيره والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،وبهذا يكون المسلمون خير أمة أخرجت للناس.

obeikandl.com

* * *

بهذه الخصائص من الواقعية والعقلانية والحرية والاجتهاد، في شريعة قوامها الرحمة والعدل واستقلال الإرادة، شجع الناس في كل الديانات والأجناس على اعتناق الإسلام والدفاع عن عقيدته واستحبوا خططه في الحياة وقبلوا مناهجه في العلوم، اجتماعية أو علمية أو تطبيقية أو رياضية. فهذا منهج للتفكير الإنساني والعمل اليومي يحيا به ويتطور على قواعده.

obeikandl.com